الباب الأول

فى

تاريخ البصرة وحياتها الاجتماعية والعقلية

الفصل الأول

مدينة البصرة

تسميتها :

أتكفى تلك الإشارات التى قدمناها من أجل تحديد الإطار الذى عاش فيه الأدباء البصريون .

إن أقلَّ ما يقال فيها أنها عامة ، قلقة ، لا تكاد ترسم صورةً كاملةً للمدينة ؛ ولهذا فهى تحتاج إلى أناةِ المتقصى ، وجَلَدِ المتعمِّق . ولن يضير أحداً أن نعود فنبدأ من حيث يُظَنّ أنه لا ضرورةَ لهذا البَدْء ، وقد قَرَّ فى النفوس أن البصرة بلدٌ إسلامى أسِسَ فى العام الرابع عشر الهجرى أو السادس عشر أو حول ذلك !

وإنه ليؤسِف حقًّا أن نقبل ذلك وقد وقع تضارب ضخم فى شرح كلمة « البصرة » نفسِها . وهذا التضارُبُ وحدَه يثير الشك — عندى — فى إمكان قبول الكلمة على أساس عربى خالص . ولقد أجمعت الآراء — برغم هذا التضارب — حتى من جانب المستشرقين وغيرهم من الأجانب ، على أن التفسيرات التى قدمها اللغويون والمؤرخون العرب لا يمكن إلا أن تكشف أكثر من اختلاف القدماء فيما لا يمكن الاختلاف فيه .

وهنا أسرع فأقول إن أمامنا ثلاثَ زُمَر من الروايات التى تلقى الضوء على حركة تأسيس المدينة ؛ الأولى ما أورده أصحاب الأخبار القديمة ، والثانية ما رواه أصحاب المعاجم ، والثالثة ما قدمه غيرُ العرب ممن اشتغل بتخطيط المدن الإسلامية الأولى وممن سجل لماضى هذه المدن إن كان لها ماض .

لقد عملت الحماسة العربية عملها فى مجاوزة الحقيقة ، بل إهمالها وإنكارها .

وما علينا — تأييداً لذلك — إلا أن نرجع إلى تلك المرحلة التى عاشتها الآرامية أو الكلدانية ، وسنرى إلى جانب ما نريد خاصاً بالبصرة أن ثمة حواضرَ ومواضعَ فى إقليم العراق لا تزال تحمل أسماءها القديمةَ أو أسماء تقرب منها. وفى هذه الحال نطمئن إلى أن كلَّ ما كان للعرب من غَلَبٍ دينى وسياسى ومن تفوُّق فى البيان واللغة ، قد استطاع أن يلقى ستاراً أمام الدارسين فأهملَتْ أطوارٌ اجتماعيةٌ وعقلية من أطوار المدينة !

أما الروايات العربية فإنها تقول إن البصرة سميت كذلك لأن فيها حجاراً سُوداً أو لأن هذه الحجارة رخوة تضرب إلى البياض[١] ، وقال ابن الأنبارى إنها فى كلام العرب الأرض الغليظة ، وذهب ابن الأعرابى إلى أنها الحجارة الصلبة وقال بعض المغاربة إنها الطين العلك أو الأرض الحمراء[٢].

وفى معاجم اللغة هى الحجارة الرخوة البيضاء أو الصلبة السوداء أو الكذان أو العلك[٣].

وهكذا لا نقطع بشىء محدد واضح ؛ فالمعاجم ككتب الأخبار لا تغنينا شيئاً ، ولا تستقر على مدلول واضح . ولكن هناك روايةً ساقها الجوهرى فى التاج فقال : « البصرة بلدٌ معروف ، وكانت تسمى فى القديم تدمر والمؤتفكة لأنها ائتفكت بأهلها أى انقلبت فى أول الدهر » وفى هذه الرواية نحس أن البلد قديم ، غير أنّا نظن ولا نستطيع ترجيحاً أن « تدمر » ليست إلا قلب « تردم » وهذه هى « تِرِدُن » Teredon على نحو ما يقول العلامة هارتمان[٤] .

وتقف إلى جانب تلك الرواية رواية أخرى تقول إن المُثَنَّى بنَ حارثةَ

---

(١) فتوح البلدان ٣٤١ « ط . بريل ١٨٦٦ »
وابن الفقيه فى البلدان ١٨٧ « ط . ليدن ١٣٠٢ »

(٢) معجم البلدان ٢ : ١٩٢ « ط . مصر ١٩٢٣ »

(٣) راجع مادة « بصر » فى اللسان والتاج والمخصص

(٤) راجع دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٦٦٩

الشيبانى خرّب « وهشتاباذأردشير » بشن الغارات عليها ، فلما قدمها العرب سموها الخريبة تصغير خربة[١] . ولو عرفنا أن الخريبةَ اسمٌ يطلق على البصرة فى كتب الأخبار لأدركنا أنها لم تكن إلا تجديداً لإحدى المدن القديمة ، ويبدو أن تلك التسميةَ الفارسية لم تحدث إلا بعد أن استكمل الفرس بناءها من جديد، كما فعل اليونانيون حين استقروا فى ذلك الإقليم عقب غزو الإسكندر فأطلقوا عليها تردن أو تريدون فى الوقت الذى بنوا فيه الأُبُلَّةَ مرفأها كما سنرى .

ونرجع إلى الوراء حتى ما قبل الفتح العربى لإقليم العراق ؛ فنجد لفظة « بصرياثا » فى الآرامية ، وردت فى نبذة نقلها المستشرق « لسترانج » فى عرضه لكتاب جغرافىّ لابن سرابيون ، ويرى بعض الباحثين أن « بصر» بالكلدانية الجزء الضعيف و « بصريا » و « بصريى » الأقنية و « بيت صرى» و« باصرى » و« باصرا » محل الأكواخ[٢]. وهنا نلمح شدة قرب الكلمة القديمة من الاسم العربى ، مما يحمل على القول بأن العرب حين استساغوها أخذ لغويوهم — كعادتهم — فى بيان معناها فوقعوا فيما وقعوا فيه من خلاف .

ويبقى الاسم لاصقًا المدينة ، وتتعرض هى لغزوات الفرس فيأتى عليها حين من الدهر تكون فيه فارسية ، وإذا هى باللسان الفارسى « بسى راه » أى الطرق الكثيرة . ويروى ياقوت لحمزة الأصبهانى أنه سمع موبذ بن أسوهشت يقول : البصرة تعريب « بسى راه » لأنها ذات طرق كثيرة انشعبت منها إلى أماكن مختلفة[٣] . وهذا صحيح لأن المنطقة كانت منذ قديم إقليمًا تجاريًّا — على نحو ما سنرى — وكثرة الطرق بها ظاهرة طبيعية ، بل ربما كانت كثرة الأنهار التى عرفت بها البصرة عاملا آخر فى تقوية هذه التسمية عند الفرس ، ويقول البلاذرى: «كانت دجلة تصب إلى دجلة البصرة التى تدعى العوراء فى أنهار متشعبة »[٤]،

---

(١) معجم البلدان ٣ : ٤٢٦

(٢) راجع مجلة « سومر » تصدرها مديرية الآثار بالعراق ٤ : ١٣٦ — ١٤١ كانون الثانى « نوفمبر » ١٩٤٨

(٣) معجم البلدان ٢ : ١٩٣

(٤) فتوح البلدان ٢٩٢

والأنهار طرق أخرى تجارية كما نعرف ، وليس يبعد على أى حال أن تغير التسمية من الآرامية إلى الفارسية هذا التغيير .

كل هذا جائز ، وجائز أيضًا ما نقوله من حمل الكلمة على العربية فى أثناء الفتح . يؤيد ذلك أن فى بعض الأخبار ما يدل على وجود التسمية قبل الفتح ، من ذلك ما يرويه ياقوت عن نافع بن الحارث الثقفى[١] أنه قال لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين إنى مررت بمكان دون دجلة ، فيه قصر وفيه مسالح للعجم ، يقال له الخريبة ويسمى أيضًا البصيرة ، بينه وبين دجلة أربعة فراسخ . له خليج يجرى فيه الماء إلى أجمة قصب » ؛ ولكن البصيرة فى هذه الرواية تصبح « البصرة » فى رواية أخرى ، ففى حديث أم سلمة أن « أبا بكر خرج فى تجارة له إلى البصرة بعد وفاة النبى »[٢] .

وهكذا ننتهى إلى أن البصرة بلد قديم ، وأنه فى قِدَمِه كان يحمل اسمًا قريبة منه التسميتان الفارسية والعربية ، وأنه عاش حتى كان الفتح الإسلامى فإذا هو هذه الخريبة . على أن الثابت أن الخريبة لم تكن طللا حين جاءها المسلمون — على ماقال نافع بن الحارث — بل كانت بلداً مسلحاً للأعاجم قتلَ فيه القائد العربى وهَدَمَ وسبى كثيراً ، وأتى نهر المرأة حيث فتح قصرها صلحًا[٣] ، ويقول البلاذُرى إن هذا القصر كان ملكًا لكامِنَ بِنت نرس[٤] .

وأما متى فُتِحَتْ ومتى مُصرت فشىء لا تتناقض فيه الأخبار كثيراً ، والروايات تكاد تجمع على أنها مُصِّرت عقب يوم القادسية على يد عُتْبة بن غزوان[٥] فى السنة الرابعة عشرة من الهجرة . ولكن هناك من يزعم أنها مصرت

---

(١) صحابى ومحدث استقر بالبصرة وما لبث أن أصبح أحد إقطاعى البلد الأرستقراطيين .

(٢) معجم البلدان ٢ : ١٩٣ ، ٦ : ٢١٦

(٣) السابق ٢ : ١٩٤

(٤) جاء فى فتوح البلدان (ص ٣٤٠) أن أباها يقال له النوشجان ، وهو الذى صالح القائد العربى عنه ، والمعروف أن أبا موسى الأشعرى من سماها بالمرأة فيما بعد .

(٥) عتبة صحابى اشترك فى بدر وكان من الذين هاجروا إلى الحبشة ، وله ذكر « فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء »

فى العام السادس عشر[١]، ورأينا الخليفة يحرص على أن ينزل المسلمون بها فى موضع أمين ، ويلخص هارتمان ما روى عن أهداف عمر بقوله : إنه قصد ببناء البصرة فى ذلك الموضع أن تكون مركزاً للجيش العربى لأنه وجدها بقعة قريبة من النهر ، تشرف على السهوب والوادى الخصيب ، وتقرب من المشارف والمرعى[٢] .

على أنها كانت فى الوقت نفسه مهيأة منذ قديم لأن تكون مدينة تجارية تنتهى إليها الطرق الآتية من إيران والهند[٣] وتقطعها الطرق الأخرى الصاعدة من بلاد العرب لتنتهى فى الشمال . وكانت قبل أو بعد أولى المناطق التى ازدهرت فيها الحركة العلمية الناهضة . ولم تكن هذه النهضة وليدة الاتفاق ، وإنما كانت نتيجة لعوامل كثيرة وأصول ثابتة ، كما كانت ثمرة لرواسب حضارية من بابلية وآشورية وفارسية وهندية ويونانية .

نموُّها :

فى الوقت الذى كانت البصرة فيه طللا أو خربة بدأ البناء العربى الجديد ، وكان الغزاة قد هدموا فيها الكثير وسبوا السبايا . وتقول الكتب القديمة إن المسلمين شرعوا يقيمون معسكراً صغيراً من فساطيط وقباب وبيوت من القصب لثمانمائة محارب أو ستمائة ، أو ثلاثمائة على اختلاف الروايات فى ذلك[٤] وسرعان ما تدفقت القبائل العربية ، وتفرقت فى سبع قطائع ، منها اثنتان فيما أطلقوا عليه اسم

---

(١) ابن الفقيه فى البلدان ٨٨ والمرجع السابق ٣٤٩ ، والمعروف أن العرب لم يجعلوا لكلمة « مصر » مدلولا واحداً ، وزعم بعضهم أن اسم مصر أصل هذه التسمية ويكاد يكون الفعل مصر (بثلاث فتحات) مساويا فى دلالته للفعل « بصر » فى قولنا : بصر البصرة كما كوف الكوفة .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٦٦٩ وما بعدها .

(٣) أطلق العرب على المنطقة التى كانت فيها الأبلة « أرض الهند »

(٤) معجم البلدان ١ : ١٩٣ وتاريخ الطبرى ١ : ٢٣٨٥ ، ٢٣٧٨ « ط . أوربا » وطبقات ابن سعد ٥ : ٣ ، ١٣٨

الخريبة . واثنتان بالزابوقة ، وثلاث فى الموضع الذى تتجمع فيه الأزد ، ومن هذه المواضع أخذ العرب يشغلون أهل فارس والأهواز وميسان . وروى أنه لم يكن من بينهم سوى ست نساء إحداهن أخت نافع بن الحارث الثقفى ، وصحبهم زياد بن أبيه ، ثم انضم إليهم سوَيد بن قطبة فيمن معه من بكر بن وائل وتميم . ولم يكد القوم يستقرون حتى خرجوا إلى الأبلّة ففتحوها[١] .

وإذا أردنا أن نتبين بدء حركة نموها رأينا الروايات تجمع على أن أول ما بنى فيها بالقصب المسجد الجامع . وقد حرص عتبة بن غزوان على أن يبنى دون المسجد دار الإمارة فى الدهناء ، وهى تلك الرحبة التى سميت برحبة بنى هاشم ، وضمت فيما بعد كلاً من السجن والديوان وحمام الأمراء ، وشرع الناس يبنون حولها ، ولكنهم كانوا إذا خرجوا للغزو نزعوا القصب وحزموه ووضعوه ريثما يعودون من الغزو ثم يعيدون بناءه[٢] . ولما استعملوا الخشب أرسل عمر بن الخطاب إلى عتبة يقول : « قد كنت أكره لكم ذلك . فإذا فعلتم ما فعلتم فعرضوا الحيطان ، وارفعوا السمك وقاربوا بين الخشب[٣] .

ويعتاد العرب طبيعة الحياة فى البصرة ، فينصرفون إلى زراعة الأرض — لكثرة ما فيها من مجار وأنهار — حتى إذا اتخذوا الضياع وعمّروها كتب إليهم عتبة أو عمر « لا تنهكوا وجه الأرض فإن شحمتها فيه »[٤] ويروى أن أبا بكرة كان أول من زرع — وأبو بكرة من أول الوافدين على البلد — وبدأ يغرس النخيل ، وقال للناس : « إنما هذه أرض نخل » فغرس القوم من بعده[٥] .

---

(١) معجم البلدان ٢ : ١٩٣ — ١٩٥ وفتوح البلدان ٣٤٦ ، ٣٤٧ وتاريخ الطبرى ٤ : ١٥١ ، ١٥٢ « ط . مصر »

(٢) معجم البلدان ٢ : ١٩٥ والطبرى ٤ : ١٤٨ وفتوح البلدان ٣٤٦ ، ٣٤٧

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٢٩٤ « مطبعة الاستقامة ١٩٤٧ » وأكبر الظن أن مثل هذا القول محمول على عمر تعصبا ، وسنرى فى الفقرة التالية قولة يتنازعها عمر وعتبة جميعا .

(٤) المرجع السابق ٢ : ١٩٤ وعيون الأخبار لابن قتيبة ١ : ٢٥٢ « ط . دار الكتب والوثائق القومية ١٩٢٥ »

(٥) معجم البلدان ٢ : ١٩٥

وفى العام السادس عشر نزل أبو موسى الأشعرى فأعاد بناء المسجد ودار الإمارة بالطين ، وجعل السقوف من العشب . حتى إذا جاء الأمويون كانت البصرة قد استقام أمرها ، وعرف أهلها السكنى الدائمة . وبنيت مبانيها باللبن المحروق ، والأحجار . وأعاد زياد بن أبيه حين ولى العراق بناء دار الإمارة ، وأصلح المسجد ووسعه ، فتكاثر الناس ، وكبر ديوان الجند ، حتى إن يوسف بن عمر الثقفى حين ولى أمره وجد المقاتلين فيه ثمانين ألفاً ، وأحصى عيالهم بمائة وعشرين ألفاً[1] ، فما بالك بغير هؤلاء من العجم ومن ليس لهم عطاء من العرب !

على أننا ما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحد من الحصر فمن حقنا أن نحاول تعرّف خطط البصرة ، ونحدد القطائع السبع التى نزلتها قبائل العرب واستقرت فيها ، وتوالدت حتى بلغ عيال مقاتليها مائة وعشرين ألفاً . ولكن بمَ نبدأ ؟ أليس من الأحسن أن يكون المربد الذى كثر ذكره فى كتب الأدب والتاريخ والذى قيل إنه يقع فى غرب البلد ، هو نقطة الدائرة التى نرسم من حولها تلك القطائع ؟

يقع جنوبى البصرة جبل على طريق اليمامة يقال له « سنام » وبينه وبين باب المربد « سَفوان » والبكرى يحدد سنام بأربعة أميال بعيداً عن البصرة فتكون سفوان أقرب إلى البلد[2] ويبدو أن سفوان كانت بقعة طيبة ذكرها وغنى بها أبو نواس فى قوله :

يا حبّذا سَفَوَانُ من متربَّعٍ ... إذْ كان مُجْتَمَعُ اللَّوَى سَفَوَان[3]

فسنام جنوبى البصرة فى المربد ، وسفوان على باب تلك السوق من غربيها ؛ فلا بُدَّ أن يكون هناك طريق تخرج منها إلى داخل البلد ، ما دامت اتخذت

---

(١) معجم البلدان ٢ : ١٩٩ وفتوح البلدان ٣٥٠ والمعروف أن هذا القائد ولى أمر العراق أيام هشام بن عبد الملك ونكل بالشيعة المنصورية .

(٢) راجع معجم ما استعجم ٧٤٠ ، ٨٥٨

(٣) معجم البلدان ١ : ٧٨٩ ، ٣ : ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٤٨

على أقل تقدير متربّعًا للقوم ، بل لابد أن تكون هذه الطريق هى سكة المربد التى تنتهى عند المسجد الجامع . وهكذا نستطيع أن نتصور الخطوط العامة للبلد ، لا سيا إذا أضفنا أن المسجد كان يتوسط المدينة .

وتروى الأخبار أنه كانت تحيط بالمسجد بيوت من ثقيف مثل دار نافع بن الحارث وكانت إلى الشمال من المسجد . ولما وجدها عبيد الله بن زياد تشغل جزءاً منه هدمها وأقام حائطه[١] ، وكذلك دور عبيد الله بن أبى بكرة وعمرو بن وهب وبيعة بن كلدة . ولعلها كانت تحاذى دار نافع ، لأن دور تميم كانت تشغل الجنوب الغربى من البصرة . ويبدو أن حدود منطقتهم امتدت إلى « الجبان » مقبرة البصريين . ويقال إن مالك بن مسمع البكرى علاه من سكة المربد وانقض على بنى العدوية من تميم وحرق ديارهم[٢] .

ومن المحتمل أيضًا أن تمتد خطط تميم إلى نهرى الفيض والأساورة ، ولم يكن هذان النهران يخرجان من دجلة مباشرة . وقد ذكر أبو عبيدة أن زياد بن أبيه حفر الفيض بعد فراغه من إصلاح نهر الأبلة من لدن دار « فيل » مولاه وكانت على الأبلة ؛ والمرجح أن الفيض يبدأ من هناك ، وكان نهر الأساورة يستمد ماءه من الفيض[٣] . وعلى النهرين سكنت عشائر الأساورة والسيابجة حلفاء تميم وهؤلاء كانوا من سكان البلد الأصليين[٤] . ومعنى ذلك أن بعض هذه القبيلة مدّ خططه إلى هذا الموضع .

أما فى شمالى البصرة فتقع « الزاوية » ويبدو أن بكراً كانت تسكن ما بينها وبين المسجد الجامع لأن الحجاج عند ما عسكر فى الزاوية وأراد ابن الأشعث أن يعسكر فى المِرْبَد احتج البكريون والعبقسيون بتعريض دورهم لهجمات

---

(١) فتوح البلدان ٣٤٩

(٢) نقائض جرير والفرزدق ٧٣١ « ط . بريل ١٩٠٨ »

(٣) فتوح البلدان ٣٥٨

(٤) السابق ٣٧٣

الحجاج[١]. ولكنا نعلم أنه كان لأنس بن مالك الصحابى المشهور — وهو من بكر — قصر فى أطراف العمران قرب المربد ، وزعم ياقوت أنه كان فى الزاوية ، وكان بهذه دسكرة عند مجىء المسلمين على ما يقول البلاذرى[٢]. ومعنى ذلك أن بكراً كانت فيما يبدو تسكن فى الشمال الغربى من البصرة قرب المربد .

على أننا نقرأ عن محلة « المسامعة » التى يقول عنها ياقوت إنها كانت فى « الزابوقة » فإذا علمنا أن محلة « المسامعة » كانت لبنى مسمع البكريين عرفنا لمن كانت الدسكرتان اللتان ابتناهما المسلمون فى الزابوقة . بل تصرح الروايات بأن عثمان بن حُنَيْف الأنصارى والى البصرة من قِبَل علىّ بن أبى طالب اشتبك فيها مع أنصار طلحة وعائشة يؤيده قوم من بكر وعبد القيس وهذا يرجح سكن بكر وعبد القيس فى الزابوقة[٣] .

أما « الخريبة » فسميت كذلك لأن المرزبان كان قد بنى قصراً وخرب من بعده ، فلما نزلها المسلمون ابتنوا قرب أطلاله أبنية وسموها الخريبة[٤]، وبها ولد عبد الرحمن بن أبى بكرة الثقفى . ويقول القحذمى إن أول حمام عرف بالبصرة فى العهد الإسلامى حمام عبد الملك بن عثمان بن أبى العاص الثقفى[٥]. ولعل هذا يدل على سكنى بعض الثقفيين فيها ، وفيما عدا ذلك لا نستطيع أن نعرف مَن مِن العرب جاور الثقفيين . ويروى أن زياداً حين قدم البصرة كان إذا أقبل البصرة أمهل بقدر ما يرى إنساناً يبلغ الخريبة ثم يأمر صاحب الشرطة بقتل من يخرج من بيته[٦] مما يدل على أن الخريبة كانت فى الطرف الأقصى من العمران وربما شرقا ، لأنها كانت عماراً والعمار لم يكن قرب المربد فى الغرب .

---

(١) البلاذرى فى أنساب الأشراف ٣٤٠ وما بعدها من الجزء الحادى عشر « ط . أوربا سنة ١٨٨٣ »

(٢) معجم البلدان ٤ : ٣٧١ وفتوح البلدان ٣٤٢

(٣) حقق ذلك بالتفصيل الدكتور صالح أحمد العلى فى مجلة سومر العراقية ٢ : ٢٩٢ ، ٢٩٣

(٤) معجم البلدان ٤ : ٤٢٦

(٥) فتوح البلدان ٣٥٣

(٦) الطبرى ٢ : ٧٦ ط . أوربا

وبعض ثقيف كان من أهل العالية ، وهؤلاء كانوا فى جنوب شرقى البصرة على ما يمكن استنتاجه . فابن بطوطة يؤكد أنه كان فى البصرة إلى زمانه ثلاث محلات إحداها لهذيل وأخرى لبنى حرام وثالثة للعجم . وكانت كلها تبعد عن المسجد الجامع بميلين[١] ولما كان مسجد أبى بكر الهذلى يقع إلى الجنوب الشرقى من المسجد الجامع فإن خطة أهل العالية — وهم خمس البصرة[٢] — تكون فى جنوبى شرق البلد . ولعل عشيرة سليم كانت أقرب أهل العالية إلى المسجد الجامع لأنهم يروون أن عبيد الله بن زيادة لما أراد الالتجاء إلى الأزد مرّ بهم ثم بناجية فطاحية[٣] .

وتبقى المحلات الثلاث التى سكنتها الأزد . ويبدو مما نراه من الرواية السابقة أنهم كانوا فى الطرف الجنوبى بعيدين عن المسجد الجامع . وهذا عجيب لأن بعضهم استوطن البصرة منذ أيام عمر . وأكثرهم وفد عليها فى عهد عبيد الله. والظاهر أن بعضهم خالط غيرهم فى الأيام الأولى للبصرة ثم تكاثروا فى تلك المحلات فعرفت لهم ، ولم يكن أحد يسميها ولم تكن لهم وحدهم فى أول الأمر .

وعلى أى حال فمن الصعب جدًّا أن نتعرف بالتحديد منازل البطون التى وفدت على البصرة[٤] ، وكثيراً ما نعثر فى الكتب القديمة على مئات من أسماء العشائر عربية ، إلا أننا نعجز عن تحديد عددها من ناحية وتعيين موضعها من ناحية أخرى . وفى كتاب « فتوح البلدان » وغيره مما يجرى مجراه ذكر لعدد كبير من القصور كان يمتلكها كبار البصريين ، ولو صح أن هذه القصور لم تقع إلا فى خطط عشائر أصحابها لدلّ هذا الأمر على عدم تداخل خطط البصرة بعضها فى بعض وهذا غير جائز على الإطلاق لأن للمدن حاجات

---

(١) تحفة النظار فى غرائب الأمصار ١ : ١٣٩ ، ١٤٠ « ط . بولاق ١٩٣٩ »

(٢) الأخماس عدا هذيل وثقيف هم سليم ومزينة وناجية وطاحية وباهلة وخزاعة وقريش

(٣) انظر مجلة سومر العراقية ٢ : ٣٠٠

(٤) حاولت عبثا أن أستعين باشتقاق ابن دريد ، باعتبار أنه حاول تعيين مكان العشائر والبطون وتحديد المواضع التى نزلت فيها بعد الإسلام ، ولى عودة إليه .

لا تُتاح لمن يعيش فى البادية . ولعل الأنهار والترع التى يصل البلاذرى بعددها إلى رقم مبالغ فيه والتى زعم أحدُ أهل الأخبار أنه أحصاها فى أيام بلال بن أبى بردة عام ١١٨ فزادت على مائة ألف وعشرين تجرى فيها الزوارق[١] — وهذا رقم خيالى — كانت من أقوى العوامل التى ما زجت بين الخطط . أضف إلى ذلك وجود السكان الأصليين من نبط وفرس وهنود ، حيث قاموا بدور الوسيط ، وساطوا دمهم بدم السادة الفاتحين . ومن ثم لا نستطيع أن نبين بالدقة لمن كان التغلب الجنسى فى المدينة . أما العرب فجعلوا يتزايدون ، فاضطر زياد إلى إعادة تنظيمهم ، وقسمهم خمس قبائل كبرى ، وأنشأ وظيفة تجمع بين شيوخها ودعاهم رءوس الأخماس ؛ وكانوا يعينون بإقرار من الخليفة[٢] .

والظاهر أن العرب برغم تحوّل بعضهم إلى الزراعة وامتلاك الأرضين لم يستطيعوا أن يثبوا إلى حياة المدن وثبا ؛ فكانت عجلةُ التطوّر تمضى فى بطء . ومهما نجتهدْ فى إثبات أن الحياة العلمية والأدبية فيها إبان القرن الأول الهجرى كانت ناهضة متقدمة أو كانت تبشر بالنهوض والتقدم ، فنحن ملزمون بأن نجمع على أمرين : على اضطراب الحياة السياسية فيها كما يدل التاريخ ، وعلى أخذ العرب بحياةٍ فيها من البداوة حظ كبير .

لقد وُسِّعَتِ الدورُ حقًّا على مرّ الأيام ، وشيدت القصور[٣] ، وتهيأتْ للمدينة كلُّ الأسبابِ لتمثّلَ تلك الحضارة الضخمةَ التى عرُف بها إقليم العراق وذاق القوم فيها الترف وتمتعوا بالنعيم . إلا أنها لم تطفرْ بهم طفرةً واحدة ، بخاصة لأنهم تعصبوا لأنفسهم وتقاليدهم ، وأخلصوا لحياتهم الأولى وعاداتهم الموروثة . وآية ذلك أن وُجِدَ فى شعرِ الفحول من آثار البيد ما يقرّبُ الصّلةَ بينهم وبين شعراء الجاهلية .

---

(١) عن الإصطخرى فى مسلك الممالك ٨٠

(٢) راجع نقائض جرير والفرزدق ١٠٣ ، ٧٢٨ ، ٧٣٠

(٣) من الواجب أن نضع فى حسابنا أن تلك القصور لا تقاس بها قصورنا هذه الأيام .

ولا بدَّ أن ينتهيَ جزءٌ كبير من القرن الأول قبل أن تصبح البصرةُ مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها كما يقولون[١] ، أو قبل أن تقابل بها الدنيا جميعاً[٢] ، وأصبح الرجل يقول للآخر : غضب اللهُ عليك كما غضب أميرُ المؤمنين على المغيرة فعزله عن البصرة واستعمله على الكوفة[٣] .

ولسنا ندهش بعد ذلك حين يتعصب البصريون لمدينتهم ولا يرضون بها بديلا ، وتصبح عندهم كلُّ شيء وينسى العرب فيها وطنهم الأول . وهؤلاء قوم من هذيل — هي القبيلة التي لم تخرج قط من البادية في العصر الجاهلي — يقولون على لسان أبي بكر الهذلي مفاخراً أهل الكوفة : نحن أكثر منكم ساجاً وعاجاً وديباجاً ونهراً عجّاجاً[٤] ورواية الجاحظ عنه : لنا الساج والعاج والديباج والنهر العجّاج[٥] .

ومثل ذلك ما يقول خالد بن صفوان حين أدخل على عبد الملك بن مروان فقال للكوفيين : نحن أكثر الناس عاجاً وساجاً وخزّاً وديباجاً وبرذَوْنَاً هملاجاً[٦] وخريدة مغناجاً ، بيوتنا الذهب ونهرنا العجب أوله الرطب وأوسطه العجب وآخره القصب[٧] . ورواية الجاحظ : نحن منابتنا قصب وأنهارنا عجب وسماؤنا رطب وأرضنا ذهب[٨] .

---

(١) البلدان لليعقوبي ٣٢٣ « ط . بريل سنة ١٨٩٢ »

(٢) المقدسي في أحسن التقاسيم ١١٣

(٣) عيون الأخبار ١ : ٢١٦

(٤) عيون الأخبار ١ : ٢١٧

(٥) البيان والتبيين ١ : ٣٤٠

(٦) البرذون ضرب من الخيل لعله البغل ، والهملاج صفة لما جد في جريه كالفرس .

(٧) معجم البلدان ٢ : ٢٠٤ ، ومن الضروري أن نقول هنا إن خالداً كان من أعلام الخطابة في البصرة ، وقال عنه الجاحظ في البيان والتبيين : «إن لكلام خالد كتابا يدور في أيدي الوراقين » وذكر ابن النديم في الفهرست (ص٥١) أن المدائني وضع فيه كتابا ، وقد عاش إلى أيام السفاح وقال له في أناقة تشبه أناقة العصر « ولو رأيت يا أمير المؤمنين ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأوساط المخصرة والأصداغ المزرفنة والعيون المكحلة والثدي المحققة لرأيت شيئاً حسناً » روى ذلك المسعودي في « مروج الذهب » في معرض ذكر مولدات البصرة .

(٨) البيان والتبيين ٢ : ٩٠

وهكذا يتعصب البصريون لبلدهم ويقفون ضد أهل الكوفة كما يقفون ضد أهل الشام ، فيكون ذلك أول مظاهر المنافسة الإقليمية . وكتاب ابن الفقيه حافل بهذه المفاخرات ، وكانت فى أسلوب مناظرات تعقد فى حضرة الخلفاء والأمراء . من ذلك المناظرة التى عقدت فى بلاط السفاح ، والمناظرة التى عقدت عند يزيد بن عمر بن هبيرة . بل كانوا يتناظرون فى مجالسهم الخاصة وفى المساجد وفى مؤلفاتهم . ولقد وقفنا هذا النوع من الجدل على وصف طريف لحياة البصرة وحضارتها[١] .

وينتهى القرن الثانى على حياة نامية واعية ، وتظل البصرة مقرًّا لإمارة العراق[٢] . وذكر الأصمعى أنه كان من سوادها الأهواز ودست ميسان وفارس[٣] ؛ ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن نهاية الأمويين والسنين المائة الأولى من حياة العباسيين قد شهدتا أوج تقدم البصرة . إلا أن بناء بغداد قد أوجد منافسًا قويًّا لها ، وامتصت المدينة الجديدة العناصر الحية من شتى الأنحاء ، بينما كانت البصرة تتعرض لغزوات الخوارج التى لم تكن تنقطع قبل أن تقع فى براثن الزنج فى منتصف القرن الثالث ، وكل ذلك وضع حدًّا لاتساعها . وكنا نرى فى العصر العباسى حين وطد خلفاؤه ملكهم ظاهرة تحول البصريين أنفسهم إلى بغداد . فأبو محمد اليزيدى النحوى مثلا يلازم أبا عبيد الله وزير المهدى[٤] ، والأصمعى يرحل إلى المدينة الجديدة ويصاحب الرشيد فيظعن بظعنه ويقيم بمقامه[٥] وأخذ

---

(١) راجع « كتاب البلدان » ١١٨ ، ١٦٧ وما بعدها وكتاب عيون الأخبار ٢١ ، ٣٠٨

(٢) يجب أن نذكر هنا أن المقدسى لم يضع البصرة ضمن القصبات ، وإنما وضعها ضمن الأمصار .

(٣) عيون الأخبار ١ : ٢١٤ والكتب القديمة تشير من قريب ومن بعيد إلى أن سجستان وكرمان وأصفهان وخراسان والبحرين واليمامة ، كانت مقاطعات تابعة للبصرة .

(٤) مجالس الزجاجى ٩٥ (نسخة خطية) وقد طبعت المجالس بعد انتهائى من كتابة هذا البحث .

(٥) مجالس الزجاجى ٢٣

الشعراء ينزحون عنها ؛ فهذا سلم الخاسر راوية بشار يسافر ليكون قريبا من قصر الخليفة ، ويحذو حذوه أبو نواس ؛ ويلحق بهما الحسين الخليع . وفعل ذلك أبو عبيدة والجاحظ وغيرهما .

وهكذا بدا منذ القرن الثالث أن البصرة لا تستطيع أن تستأثر بالشهرة وحدها بل لم تستطع أن تجارى بغداد، وربما ظل لها نصيب فى التجارة ، إلا أن نصيبها فى العلم والأدب سار إلى وراء !

بيئتها الطبيعية :

ومن الصعب على أى حال — وقد رأينا صعوبة فى تصوير خطط البصرة — أن نقطع بشىء من معالم المدينة . إذ أن الشىء الذى ليس فيه شك أنها كانت للتغيير والتبديل . حتى إنَّ ابنَ بطوطة يزعم — على نحو ما رأينا — أن المدينة حين وصلها كانت تبعد بمحلاتها الثلاث عن المسجد الجامع بنحو ميلين ، وكان هذا يقع فى وسط الخطط أول إنشائها .

وقد ساعد على تقلب شكلها واختلاط خططها وعدم احتفاظها بالشكل الدائرى كمعظم المدن الإسلامية أنها لم تسوّر بسور يحفظها من هجمات المغيرين حتى إننا لا نجد له ذكراً فى أثناء هجمات صاحب الزنج سنة ٢٥٧ للهجرة . غير أن هذا لا يعنى أنها لم تسوّر قط ؛ فالأخبار تقول إن المنصور حين استعمل على البصرة الهيثم بن معاوية العتكى أمره فَخَنْدَقَ عليها من دون سور أقامَهُ من أموال أهلها[1] . ويبدو أن السور كان من الضعف بحيث إنه لم يكن له أدنى أثر فى حفظ المدينة . ولكنا نقرأ عن سور آخر أقيم حولها بأموال بلغت أربعة عشر ألفاً من الدنانير[2] وقد اقتحمه الجنابى القرمطى عند احتلاله البصرة عام ٢٨٦ على ما يقول ابنُ الأثير[3] . ويذكر ابن بطوطة السورَ القديم وكان

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٤

(٢) السابق ٣ : ٢١٨٨

(٣) الكامل ٨ : ٤٩ (ط . بولاق)

بداخله مشاهد البصرة العتيقة وقبورُ الصحابة والتابعين بقوله : « وذلك كله داخل السور القديم ، هى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال »[١] فنضع أيدينا من جديد على ما يشير إلى تغير شكل المدينة واستمرار زحفها إلى الشمال .

وإذا صرفنا النظر عن السور إلى داخل المدينة نفسها راعنا ما نجده فيها من كثرة فى الأنهار والترع . وعلى الرغم من أن بعضَها كان ينطمر عند الإهمال وبعضها الآخر تتحولُ مجاريه بحسَبِ حالة المياه فى البطيحة ، فإنها أصدق تصويراً لمعالم المدينة التى تردد ذكرُها فى المصادر العربية لا سيما فى كتاب البلاذرى .

ومن الحق أن نذكر هنا أن حال تلك الأنهار أخذت فى التحسن منذ عهد معاوية ، إذ لقيت منه أمور الرى عناية طيبة انتهت بالسيطرة على مياهها إلى حد كبير . وقل ما كان يضيع منها فى البطائح ، وكانت هذه تهدد مزارع المدينة من الشمال فى منطقة الطفوف .

هذه الأنهار التى يضيع بعضُ مائها فى البطائح كانت تخرج من دجلة العوراء على نحو ما رأينا البلاذرى يقول[٢] . وأشهرها نهر أبى الأسد مولى المنصور وعلى بعد فرسخين منه نهر المرأة ، ثم نهر مَعْقل ، وبعدهما بفراسخ نهر الأبلة ثم هناك أنهارٌ أخرى بعضُها ضعيف الأثر فى المدينة . ويهمنا هنا بخاصة أنهارُ معقل والمرأة والأبلة ، لأنها لعبت دوراً كبيراً فى حياة البصرة .

أما نهر المرأة فهو الذى حفره أبو موسى[٣] متجهاً به إلى الجنوب الغربى . والمرأة هى كامن بنت نرس أو طماهيج ؛ وكانت تسكن فى القصر الذى كتب عنه إلى عمر نافعُ بن الحارث بن كلدة الثقفى والذى فتح صلحاً[٤] .

وأما نهر مَعْقِل فقد كان الطريق الرئيسية للمواصلات النهرية ، لذلك أنشأ عليه جباة العشور وأصحاب الصدقة مقرهم ، ومدوا عليه السلاسل لحصر

---

(١) تحفة النظار ١ : ١٤٢

(٢) فتوح البلدان ٣٠١

(٣) السابق : ٣٤٠

(٤) معجم البلدان ٢ : ١٩٣ ، وفتوح البلدان ٣٤٠

السفن وتفتيشها وفرض الضرائب عليها ، وقد شُقّ فى عهد عمر ، وقيل فى عهد معاوية ، وأقيم عليه أحدُ جسرَى البصرة المشهورين[١] وكان الجسر الثانى ممتدًّا على دجلة حيث عسكر المهلب عنده[٢] .

وأما نهر الأبلة فقد شق أيام عمر عند موضع يقال له الأجَّانة أو الخرارة على بعد ثلاثة فراسخ من البصرة . ومن هناك كان يمتد خور إلى دجلة العوراء فى مسافة فرسخ فصار طولُ النهر كله أربعةَ فراسخ ، ثم انطمّ قرب المدينة أيام عثمان بن عفان فأشار هذا على واليه عبد الله بن عامر بن كُرَيْز أن ينفذ حفر النهر من حيث انطم ، واستمر الأمر حتى جاء من بعده عبد الرحمن بن أبى بكرة « فلما فتح عبد الرحمن الماء جعل يركض فرسه والماء يكاد يسبقه»[٣] .

وفى شمالى النهر تقع مدينة الأبلة ، يقول عنها القزوينى إنها من « كور البصرة طيبة جدًّا ، نضرة الأشجار ، متجاوبة الأطيار ، متدفقة الأنهار ، مونقة الرياض والأزهار»[٤] .

وفى جنوبه يمتدّ شَطُّ عثمان ، وهو أراض واسعةٌ أقطعها الخليفةُ عثمان بنُ عفان لعثمان بن أبى العاص الثقفى[٥] ، وبين شط عثمان والأبلة ترع كثيرة تقوم عليها إقطاعات طيبة شديدة الاتساع ، منها قطيعة حمران ، وقطيعة

---

(١) فتوح البلدان ٣٥٢ ، ٣٦٨

(٢) انظر مجلة سومر ١ : ٨٠

(٣) فتوح البلدان ٣٥٦ — ٣٥٩

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٩٠ (مطبعة جوتنجن سنة ١٨٤٩)

(٥) أتى ياقوت فى معجم البلدان (٣ : ٢٩٠) بوثيقة لم يبين مصدرها وفيها « هذا كتاب عبد الله عثمان أمير المؤمنين لعثمان بن أبى العاص . . . إنى أعطيتك الشط لمن ذهب إلى الأبلة من البصرة والمقابلة قرية الأبلة والقرية التى كان الأشعرى — ولعله أبو موسى — عمل فيها ، وأعطيتك ما كان الأشعرى عمل من ذلك ، وأعطيتك براح ذلك الشط أجمة وسبخة فيما بين الخرارة إلى دير جابيل » وفى الوثيقة أن هذا الإقطاع عوض عن أرض لابن أبى العاص بيثرب أخذها منه الخليفة .

نافعان ، وقطيعة ربيعتان[١] . وقد جرت العادة على أن الذى كان يُقْطَع شيئًا كان يُترك فيها عامين « فإن عَمَّرها وإلا أخذها — الأمير — منه » على ما يروى البلاذرى[٢]، ومثل هذه الإقطاعات رَسَمَ دائمًا لأهل البصرة جوًّا مترفًا من الخضرة المنسقة ، وصار من آثاره أن كثرت الأشجار ولا سيما النخيل ؛ فكان هناك على — ما يروى — أكثرُ من خمسين فرسخًا نخيلا[٣].

وينبغى ألا ننخدع بكل ذلك ، فإن هذا الجو الشاعرى لم يكن خالص اللذة . لأن مناخ البصرة لم يكن طيبا ، وموقعها أيضًا لم يكن طيبًا ؛ فالبلد يتعرض للبرد فى الشتاء « وربما جمد الماء فى البصرة »[٤] وترتفع الحرارة صيفًا ، فإذا هبت « الشمال » طاب المناخ .

وليس هذا فحسب ، وإنما أيضًا كانت أمواه الأنهار مالحة وإن صلحت لإنبات الأترج والنارنج وأنواع من القصب[٥] وقد ضج من فسادها الجميع . حتى فى عهد تمصيرها الأول ، وكان المفروض أن البَدْوَ أكثر الخلق قدرةً على تحمُّل عَنَتِ الماء . وقد تجردَ زعيمُ تميم الأحنفُ بنُ قيس يخطب بين يدى عمر فبسط — فى خطبة له — متاعب النازحين إلى البلد الجديد « إن مفاتيح الخير بيد الله . وإن إخواننا أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة ، والجنان الملتفة . وإننا نزلنا سبخةً نشّاشة لا يجفُّ نداها ولا ينبت مرعاها ، ناحيتها من قِبل المشرق البحرُ الأجاج . ومن قِبل المغرب الفلاة ، فليس لنا زرع ولا ضرع يأتينا . منافعنا وميرتنا فى مثل مرّىء النعامة ، يخرج الرجلُ الضعيف فيستعذب الماء فرسخين وتخرج المرأة لذلك فترنق ولدها ترنيق العنز ، تخاف

---

(١) الأولى لحمران بن أبان مولى عثمان الخليفة ، والثانية لنافع بن الحارث ، والثالثة لربيعة ابن أبى الصلت (راجع ما ذكره فى ذلك البلاذرى فى فتوح البلدان ٣٥٤ وما بعدها ، وما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ٣ : ٢٥٦ ، ٤ : ٨٣٤) ونقول إن « الألف والنون» المذيل بهما كل علم استعمال أسلوبى خاص بالبصريين .

(٢) فتوح البلدان ٣٦٢

(٣) الإصطخرى ٤٥

(٤) المقدسى ١٢٥

(٥) آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ١٩٠ والأترج كالليمون .

بادرةَ العدو وأكْلَ السبع »[١] .

وطبعى — وقد شغف البصريون بالتعرض لسكان المدن — أن يعيب مناظروهم عليهم ذلك كله ؛ فقال أحد الكوفيين الشعراء وقد رأى كيف أحالت الطبيعة القاسية ألوان البصريين ، وكسفت وجوههم حتى كأنهم العشاق المعاميد :

لما كسا اللهُ ثيابَ الضنَى أهل الهوى وساكنى البصرة

وقد سبَّ الفرزدق بلده وبرّر وجودَه فيه تبريراً يدرّعليه عطاء أحد ممدوحيه :

لولا أبو مالك المرجوّ نائله ما كانت البصرةُ الرعناءُ لى وطنا

ولا نعدم غير الفرزدق أحداً ، فها هو ذا ابن لنكك يقول :

نحن فى البصرة فى لو نٍ من العيْشِ ظريفِ
نحن ما هبت شمالٌ بين جنـات وريفِ
فإذا هبـت جنـوبٌ فكأنّا فى كنيـفِ

والنص — كما نرى — يرينا كيف أن ريح الجنوب تهب . فتجف أكوام الروث المتجمعة على ضفاف الأنهار ، فتكون ثمةَ رائحةٌ كريهة !

على أن البصرة برغم كل هذه المتاعب كانت حبيبةً لدى أهلها . وكانت الطبيعة تفيض عليهم بالعطاء ؛ فموقعها فى مفترق الطرق — برية كانت أو بحرية — كان يدفع إليها سفن التجارة فتلقى ترفاً لم تلقه أية مدينة أخرى . وكانت من ناحية أخرى تغلّ عليهم أرزاً تفنن فى طبخه أهلها بالسمن والسكر . فى حين كان الخبز والتمر أدنى ما يأكلون[٢] . هذا إلى جانب الحنطة التى نظمت زراعتها وطرق استغلالها وقد رأى عمر أن يجعل على الجريب منها أربعة دراهم خراجاً ، فى حين جعل على جريب القصب ستة . وأكبر الظن أن هذا ظل معمولا به فيما بعد[٣] .

---

(١) فتوح البلدان ٣٥٦

(٢) عيون الأخبار ٣ : ١٩٧

(٣) الجريب ثمانية أرطال فى الغالب — راجع التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ١٤٦ (ط . المعارف ببغداد سنة ١٩٥٣).

دورها :

ودور البصرة وقُصورُها تُعطى ملامح قوية لشخصية البصرة من حيث إنها كانت تلعب دورها فى تنمية الحياة العقلية والأدبية بها ، ويذكر البلاذرى كثيراً من القصور كالقصر الأحمر والقصر الأبيض وقصر النواهق ، وقصر المسيرين ، وقصر النعمان ، وقصر أوس ، وقصر أنس[١] وكان القصر الأخير فى الزاوية عند الطفوف[٢] تحيط به بساتين كروم ومزارع خصبة . وفى الشمال الشرقى للبصرة أقام سليمان بن على والى البصرة أيام الرشيد قصره قرب البطيحة فى ضيعة أنفق عليها مليون درهم ، فاضطر الرشيد إلى أن يحذو حذوه ويقيم بالقرب منه قصراً فى ضيعة السبيطة[٣] على أن قصر أنس ظل يثير خيال الشعراء ، فقال فيه عبد الله بن محمد بن أبى عُيَيْنَة[٤] :

فَياطيبَ ذاك القصر قصراً ونزهةً ... بأفْيَحَ سهل غير وعر ولا ضَنْك
بِغرْس كأبكارِ الجوارى وتُربةٍ ... كأنَّ ثراها ماءُ ورد على مِسْك
كأنَّ قصورَ القوم ينظرْنَ حولَه ... إلى ملك موفٍ على منْبر المُلك
يُدِلُّ عليها مُسْتَطيلا بِفَضْلِه ... فيَضْحَكُ منها وهى مطرقة تبكى[٥]

وفيه قال الخليل بن أحمد مخلصًا ، إذْ لم يكن ملقا ينشد عطاء :

زرْ وادىَ القصر نعْمَ القصرُ والوادى ... لا بدَّ من زورة عن غير ميعاد
ترفا به السفْن والظلمانُ واقفةٌ ... والضب والنون والملاح والحادى[٦]

وأما القصر الأبيض فقد كان لعبيد الله بن أبى بكرة وكان يقع بين الزاوية والمسجد الجامع ، ويقال إن عبيد الله اشترى أرضه من عبد الله بن عثمان بن

---

(١) راجع فتوح البلدان ص ٣٥٥
(٢) الطفوف حدود البطائح من الجنوب .
(٣) فتوح البلدان ص ٣٦٤
(٤) هو أحد شعراء البصرة المطبوعين ومن أسرة شاعرة ، رفع أحد أفرادها إلى عليين أبو تمام (راجع أخبار البحترى للصولى ١٣٧ ، ١٦٥ — مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٥٨) .
(٥) الشعر والشعراء ٢ : ٨٥٣ (ط . الحلبى سنة ١٣٦٤) .
(٦) عيون الأخبار ١ : ٢١٧

أبى العاص الثقفى وأنفق فى زخرفته بأنواع النقوش والرياش مليون درهم[١]، وهذا مبلغ ضخم بالنسبة لانخفاض مستوى المعيشة فى ذلك الحين .

ويطول بنا الأمر إذا ذهبنا نحصى قصور المدينة ؛ فهى كانت كثيرة. وقد لا تكون فى حقيقة الأمر — كما قلنا — بالصورة التى نتمثلها إذا ذكرنا القصر فى هذه الأيام . إلا أنها — وقد لهج الناس شعراء ورواة بها — كانت على عهدهم شيئًا عجيبًا ، وكان ما فيها يثير الدهشة والتساؤل . ولدينا هنا ما يرويه خالد ابن صفوان حين دخل على يزيد بن المهلب ؛ فهو آية واضحة لما نقول !

وينبغى أن نلاحظ أولا أن خالداً لم يكن من أوساط الناس وإنما كان شريفًا فى قومه ، وما يرويه ينطبق إلى حد بعيد على أحد دور الأغنياء ونستبعد أن تكون داره هو لأنه كان بخيلا[٢]. قال خالد حين دعاه يزيد إلى الغداء: أصلح الله الأمير ، لقد أكلت أكلةً لست ناسيها ! فقال يزيد : وما أكلت ؟ قال: مِلتُ إلى غرفة هفافة فى حديقة قد فتحت أبوابها ونضح بالماء جوانبها ، وفرشت أرضها بألوان الرياحين من بين ضيمران نافح وسمسق فاتح وأقحوان زاهر وورد ناضر ، ثم أوتيت بخبز أرز كأنه قطع العقيق وسمك بيض البطون زرق العيون سود المتون عراض السرر غلاظ القَصَر ، ودقة وخلول ومُرْى وبقول ، ثم أوتيت برطب صاف غير أكدر لم تبتذله الأيدى ولم يهشمه كيل المكاييل ، فأكلت هذا ثم هذا[٣] .

وتكتمل صورة الترف حين نرى أدوات الطرب فى كل دار ؛ فهم يروون أن « خليلان » وكان ذا نعمة واسعة حضر يومًا منزل عقبة بن سلم الهنائى وهو أمير البصرة وكان متزمتًا عاتيًا جباراً ! فلما أكلا نظر خليلان فوجد عوداً قريبًا

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٤٥٧ (ط . أوربا) .

(٢) لقد عده أبو الفرج من بخلاء العرب الأربعة (راجع الأغانى ٢ : ٤٦ ط . دار الكتب والوثائق القومية) .

(٣) المبرد فى الكامل ٢ : ٣١٩ ، ٣٢٠ (مطبعة الاستقامة ١٣٦٤) والضيمران والسمسق والأقحوان أنواع من الزهور . والسرر مستقر الرأس فى العنق ، والقصر يبس فى العنق وقد تسكن الصاد .

منه فتناوله وأخذ يغنى به حتى سرى عن عقبة[١] فما بالك بمن لم يكن فى تزمت هذا الأمير ؟

على أن تلك الدور لم تكن دور لهو فحسب ، وإنما عقدت فيها مجالس المناظرة ، وفى أفنيتها الواسعة اجتمع الأدباء والعلماء ، فكانت تشارك المساجد والأسواق فى تنشيط الجو الأدبى والعلمى والاجتماعى ، وفى توجيه العقول إلى البحث والمناقشة والتنقيب . فهم يروون مثلا أن أبا عمران بن مويس بن عمران كان يجمع فى داره المتكلمين والمعتزلة وأهل الحديث والمرجئة[٢] كما يروون أن قصر آل نوبخت[٣] كان قبلة الشعراء والأدباء .

وأما دور آل سليمان بن على عم أبى العباس السفاح فقد كانت حافلة بهذه المجالس ، وكان جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس يجمع فى داره العلماء فصار من جلسائه الأصمعى والمفضل الضبى ، وكانت المناظرات تجرى بينهما وهو حاضر . وكان من جلسائه أيضًا المؤمل بن جميل بن يحيى الشاعر[٤] والطريف أن داره كانت خلف دار أبى عمرو بن العلاء ، ويقول الجاحظ إنه كان بها مكتبة بلغت كتبها السقف قبل أن يحرقها[٥] .

هذا وكان أبو حاتم يجتمع بالمازنى فى دار عيسى بن جعفر ، ويحكى الجاحظ أن النظام ناظر أبا شمر المرجىء فى مجلس أيوب بن جعفر — وكان أحد أمراء البصرة — ولم يزل يجادله ويضطره بالحجة وبالزيادة فى المسألة حتى أخرج الرجل عن هدوئه وحرك يديه وفك حبوته — وكانت عادته أن يحتبى حين يناظر — وزحف إليه حتى أخذ بيده وترك القول بالإرجاء[٦] .

---

(١) المرجع السابق ١ : ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) أسرة فارسية مشهورة مال أبناؤها للفن ، وكان يقصدهم أبو نواس ، فلما هجاهم — قيل — دسوا له السم فقتلوه .

(٤) المرزبانى فى معجم الشعراء ٣٨٥ (طبعة المقدسى) .

(٥) البيان والتبيين ١ : ٣٠٩ (ط . الاستقامة ١٩٤٧) .

(٦) السابق ١ : ١٠٦ .

أما دور الشعراء فليست فى حاجة إلى أن نقف عندها ، فقد كان بيت بشار منتدى لكثير من أصحابه ، وكانت مجالس أبى نواس فى داره كثيرة . وفى حياة الشاعرين ما يدلنا على حقيقة تلك المجالس التى كانا يعقدانها ، ووجود واصل بن عطاء فى مجالس بشار يكشف لنا على أى حال عن اتجاه بشار . وكان يحضر مجلسهما أربعة آخرون هم عمرو بن عبيد وعبد الكريم بن أبى العوجاء الذى يقول بالتناسخ ، ورجل يدعى صالحًا ورجل أزدى اعتادوا أن يتخاصموا فى بيته[١] .

مساجدها :

ولم تكن دور البصرة وحدها تشهد هذا النوع من المجالس ، وإنما شاركت المساجد أيضًا فى تكوين مزاج البصريين . وقد كان الخلفاء والأمراء يحضرون الحلقات فى المسجد الجامع إلى جانب عامة القوم ، ويروى أن الرشيد حين نزل البصرة قصد مسجدها الكبير وجلس إلى يونس بن حبيب فى حلقته[٢] ، ويتصل بالمساجد من قريب كتاتيب البلد ، وفيها يتلقى المتعلمُ مبادئ القراءة والكتابة والقرآن ، وربما بعض اللغة على حسب استعداد المعلم وكفايته ، حتى إذا استقام أمر الصبى أخذ مكانه فى أحد المساجد . وقد يصل إلى المسجد الجامع فى آخر الأمر ، ولكن بعد أن يعانى الكثير من معلم كتّابه ، ولم يكن هذا فى الغالب على حظ من العلم ؛ وإلا لما اضطر الجاحظ إلى أن يقول فيه : أحمق من معلم كتاب[٣] .

على أى حال كانت المساجد من أهم معالم المدينة ، ولم تكن تقتصر على العبادة فحسب ، ولا على عقد الحلقات العلمية فيها أيضًا ، وإنما كانت كذلك مسرحًا للهو والعبث . يجلس فيها المسجديون — وخاصة فى الجامع الكبير —

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٤

(٢) مجالس الزجاجى ١١

(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٤٩

ويلهون كما يذكر ذلك الجاحظ فى بخلائه ، ويجتمع فيها الظرفاء ويتماجنون ، ويترصد اللاهون فيها للشباب الصغير . يروى أن محمد بن مناذر أراد أن يوقع أبا نواس فى حبائله ذات يوم وهو فى المسجد يصلى[١] .

وقد كانت المساجد منتشرة فى أنحاء المدينة ، ويذكر ابن الفقيه أن زياداً بنى سبعة مساجد منها مسجد الأساورة[٢] . ويبدو أن كل قبيلة بل كل عشيرة كانت تقيم لنفسها مسجداً ، إذ أنّ الفرزدق يقول فى معرض الهجاء :

لكلّ أناس مسْجِدٌ يعْمُرونه وليس لنزّال بنِ مُرْةَ مسْجِدُ[٣]

والحق أنه لن يعنينا هنا سوى المسجد الكبير باعتباره أكبر مركز دينى ثقافى وأهم عامل فى تكوين مزاج البصرة الروحى والاجتماعى . وكان فى أول أمره يقع وسط المدينة ، وتركت أمامه رحبة يقال لها الدهناء شيدت عندها دار الإمارة . وفى العصر العباسى سميت رحبة بنى هاشم ، وأقيمت فيها الدوائر الحكومية . وبين هذا المسجد والمربد استقرت قبيلة تميم على نحو ما قلنا ، إذ استطاعت بكثرة عددها وقُربِها من مراكز السلطان أن تلعب أدواراً خطيرة فى تاريخ البصرة .

ويهمنا هنا أن نذكر بعد ذلك أن هذا المسجد الجامع كما بدأ ساذجًا فى بنائه ، بدأ ساذجًا فيما كان يحدث فيه . وحين كانت الحياة فى البصرة أكثر ميلا إلى السكون والخمول ، لم يكن الأمر فيه يعدو ضم المصلين بين جدرانه ، وربما دعاهم الأمير إليه فكانوا يتحلقون حوله ويسمعون منه . ومع ذلك فقد كان بعضهم يجلس إلى البعض الآخر يخوضون فيما يشغلهم ، ويروى أبو الفرج أن قومًا من بنى تميم كانوا يتذاكرون فيه أهل الكوفة[٤] فكان ذلك إيذانًا باشتعال نار المنافسة بين البلدين . ويروى أن جعفر بن الحسن كان أوّلَ من اتخذ فى

---

(١) الأغانى ١٧ : ١١

(٢) كتاب البلدان ١٩١

(٣) ديوان الفرزدق ١ : ١٩١ (ط . التجارية)

(٤) الأغانى ٦ : ٥٤

مسجد البصرة حلقةً وأقرأ القرآن[١] .

ومع ذلك فمن الواجب أن نقول إن روّادَ المسجد كانوا متصلين بعصرهم وبالتيارات الغالبة عليه ، ومحيطين بشيء كثير من ماضى الإقليم الذى شيد فيه . وقد أخذت الحياة تتعقد رويداً رويداً ، وأخذ الموالى يشعرون بشخصيتهم ، ويتأهبون للحياة بمجاراة العرب فى إحياء تراث ماضيهم . فأخذ المسجد يردّدُ أصداء هذا كله ، وبدأت تدوى فيه أصواتُ الخصومات المتصلة بين القبائل العربية . وكانت تلك الخصومات سبباً فى إثارة المنافسة بين الجميع ، وجعل الشعراء فى المربد يهيجونها ، ووضع الرواة على عاتقهم تقصّى الأخبار القديمة ، وجلسوا فى حلقات يحكونها للناس فيرددها الجميع فى أنحاء البصرة .

وهكذا أخذ المسجد يتحوّل أيام الأمويين إلى معهد ضخم تُرْوَى فيه الأحاديثُ ، ويفسَّرُ القرآنُ ، وتقص فيه القصص ، وتعقد المناظرات ، وتُسْرد الأخبار ؛ فصار بذلك أهم مركز للحركة العلمية فى العراق كله . ومنذ اتخذ عبد الله الحضرمى حلقته فى المسجد لدراسة العربية فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وعقد الحسن البصرى وبكر بن عبد الله المزنى وصفوان بن محرز التميمى وغيرهم مجالس القصص والوعظ ، تحلقت الحلقات الكثيرة للبحث فى شتى الأمور التى يضطرب بها البصريون . فوجدنا فيها إلى جانب العرب صنفاً من الموالى ، وراح المُرجئ يجلس إلى العثمانى . والخارجى يستمع إلى الزيدى . فتختلف الآراء وتتعقد الأمور ويتسع الجدال وتكبر المنافسة ويعظم النقاش ، ويؤدى هذا فى نهاية الأمر إلى انقسام الحلقات . فيخرج واصل بن عطاء مثلاً على الحسن البصرى ويعتزل حلقته فيكون نواة للاعتزال ، كما يخرج عليه عمرو بن عبيد ، وقد روى السيد المرتضى إحدى مناظرات القوم فى أماليه[٢] .

وكان الحسن البصرى يجتذب النفوس بعلمه وسمته ، فهم يروون أن ثَمَّ

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٤٦ .

(٢) أمالى المرتضى ١ : ١١٤ .

راهبين دخلا عليه المسجد فوجداه فى حلقته وأعجبا به وقال أحدهما للآخر : مِلْ بنا إلى هذا الذى كأن سَمْتَهُ سَمْتُ المسيح [١]! ولكنه لم يكن وحده قبلة المرتادين . فياقوت يقول مثلاً : كان حماد بن سلمة بن دينار يمرّ بالحسن البصرى فى الجامع فيدعه ويذهب إلى أصحاب العربية يتعلم منهم [٢]. والعجيب أن الحسن لم يكن راضياً عن الظروف التى كان يضطرب فيها البصريون فكان يشتد على الحكومة وينكر رأى الخوارج . ويقول بالقدر . وكان إذا جلس فتمكن من مجلسه ذكر عثمان فترحم عليه ولعن قاتليه . ثم يذكر علياً ويقول : لم يزل أمير المؤمنين علىّ رحمه الله يساعده الظفر حتى حكّم ؛ فلم تحكم والحق معك . ألا تمضى قدماً — لا أبالك — وأنت على الحق [٣] ؟ وكثيراً ما كان الفرزدق يتردد على حلقته . وفى إحدى هذه الحلقات طلق النوّار زوجه [٤].

وكان ثمة صراع بين شيوخ الحلقات . وكان الخليل وهو شاب يمرّ بحلقة أيوب السختيانى شيخ السنة فلا يقربها ويتجنبها هو وأصحابه عملا بنصيحة شيوخهم من الخوارج . ولما جلس إليه تحول عن الأباضية . وكانت حلقة أبى عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ تفتنه فيجلس إليها ، كما كان يسمع إلى كثير من شيوخ أهل البصرة الذين يعنون بالقديم حتى نجد من يقول : هذا مذهب أبى عمرو وأصحابه كالأصمعى وابن الأعرابى . أعنى أن كل واحد منهم يذهب فى أهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم ، وليس ذلك إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون [٥].

ونستطيع أن نلمس هذه المدرسية فى أبى عبيدة تلميذ أبى عمرو الذى رأس حلقته فى المسجد منذ منتصف القرن الثانى ؛ فإذا هو يحدد اتجاهه بعلوم العرب

---

(١) الكامل ١ : ٥٩

(٢) معجم الأدباء ٤ : ١٣٥

(٣) الكامل ٢ : ١٣٦

(٤) السابق ١ : ٧١

(٥) العمدة ١ : ٥٧ (طبعة هندية سنة ١٩٢٥) وليس من سبيل إلى ضم ابن الأعرابى إلى أصحاب أبى عمرو بن العلاء ، فابن الأعرابى كوفى أخذ عن المفضل الضبى .

من لغة وشعر وأخبار ، وإذا هو يوجه الدراسة الأدبية وُجْهَةً لغويةً ترمى إلى الاستشهاد بالقديم ، وكان هذا طريق شيخه الذى سار فيه . وكذا يمكن أن نقول إن مجالس المسجد الجامع كانت فى الواقع مذاهبَ يأخذ بها الخلف عن السلف ، حتى إذا اختلف الطالب مع أستاذ انفرد عنه وكوَّنَ حلقةً جديدة يجلس إليها روّادُ المسجد .

وعقد الخليل حلقته فى حياة أبى عمرو الذى أنفق خمسين عامًا يدرس العربية والنحو ، فاتصل به النظام وأخذ عنه وقال له بعد أن رأى نبوغتَه : يا بنى نحن إلى التعلُّم أحوجُ منك[1] . ولما ابتكر العروض اتسعت حلقته وجلس إليه الأصمعىّ ، وفى شيخوخته تردد على حلقته سيبويه . ونلمس صراع الشيوخ حين يروى الرواة ما كان يصيب يونس بن حبيب من غمّ وهو يرى اتساع حلقة الخليل !

ولما تنوعت العلوم فى العصر العباسى تنوعت كذلك حلقات الدرس ؛ فثمة حلقات للنحو ، وثمة حلقاتٌ للأدب والشعر ، وحلقات غيرها للكلام . وكان أحفل الحلقات على الإطلاق حلقات المتكلمين ، وذلك منذ اعتزال واصل وتَصَدِّى أصحابِه للردّ على الفرق الأخرى . وساعد فى ذلك موتُ فحولِ النقائض ، بعضهم مات فى نهاية القرن الأول ، وبعضهم مات فى أوائل القرن الثانى .

ويبدو أنّ حلقاتِ المعتزلة أخذت تتطور سريعًا ، وتنمو نُمُوًّا فلسفيًّا ، وراحت تستعين بشتّى ثقافات العصر ، فرسمت بذلك اتجاهَ سائر المتكلمين . وشرع هؤلاء يضعون أيدَيهم على مسائلِ العلم المختلفة ، ونستطيع أن نزعم هنا أن العنصرَ اليونانىَّ عند هؤلاء كان أكثر وضوحًا من العنصر الدينى ، وصاحب العنصر الأخيرَ نزعةٌ عربية حين يشتغلون بالأدب ويدرسون الإعجازَ ويتخرج فيهم الأدباء .

والظاهرةُ الفذة أن أساتذة هذه المجالس كانوا من الموالى شأن حملة العلم

---

(١) أمالى المرتضى ١ : ١٣٣

والفلسفة فى القرون الأولى للإسلام . وهذا عجيب حقًّا ، إذ أنهم أخذوا على عاتقهم الردّ على الزنادقة والملاحدة وأصحاب العقائد من ثنوية ودهرية وغيرها ، وكان الأولى أن يقوم بذلك قومٌ من العرب وهم حملة مشعل الدين الجديد . إنا لا نملك حقيقة الدافع إلى هذا الدفاع ، اللهم إلا إذا اعتبرناه أشبه بردّ فعل حينما عارضوا سلطانَ الإسلام وتعاليمَه وثقافته ! هذا ما يذهب إليه الأستاذ نيبرج [١] وهو إلى حد بعيد يستقيم مع الواقع ! فليس يبعد أن يكون هؤلاء قد شرعوا — أول أمرهم — فى معارضة الدين . وفى أثناء خوضهم فيه تَبَيَّنَ لهم سلامته ؛ فانقلبوا ينافحون عنه ويترصدون لمن يكيد له . ومع ذلك فقد ينبغى أن نسىء ببعضهم الظن ، ونأخذ عليهم كفرهم وعبثهم بالإسلام فى صورة دفاع عنه [٢] .

أما مجالس القرآن والتفسير والقصص فقد حمل لواءها شيوخ أكثرهم من العرب ، وهذا أمر طبيعى لأن أداة التعبير كانت عربية ، وجعلوا يرددون فيها آثار ابن عباس ، بل كذلك ابن مسعود — وهو كوفى — ومن إليهما . وهنا يغلب العنصر الدينى ويكاد الشيوخ يكونون جميعًا عربًا ، ومن هؤلاء أبو بكر الهذلى وكان خطيبًا عالمًا بالأخبار والآثار يعقد الحلقات للقصص [٣] . بل يروى الجاحظ أن الخليل بن أحمد — وهو من الأزد — كان من الرواة والنسابين المجيدين [٤] . وقص فى المسجد أيضًا ابن سيار الأسوارى ، وكان من الموالى ، قال عنه الجاحظ « كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس

---

(١) راجع مقدمته لكتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى للخياط (طبعة دار الكتب والوثائق القومية عام ١٣٤٤ هـ).

(٢) أحسب أننا لو جعلنا هؤلاء امتداداً طبيعيًّا لنوع الجنس الذى نشط للفن والعلم خلال عصر الموالى الذى ينتهى تقريباً بموت المأمون لما كان ثمة غرابة ؛ فقد كان الشعراء والكتاب من أصل غير عربى طيلة هذا العصر !

(٣) راجع البيان والتبيين ١ : ٣٤٠ ، ٣٤٦

(٤) المرجع السابق ١ : ٣٤٢

فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين»[١] وكان عمرو بن فائد يقص فى مسجده ويفسر ، وأنفق فى ذلك ستًّا وثلاثين سنة ، ابتدأ فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات . وكان يونس بن حبيب يسمع منه ويحتج بكلامه[٢] ولما عقد الأخير جلسة قعد إليه أبو نواس وتعلم منه كما جلس إلى الأصمعى وأخذ بعد ذلك يضعهما ويذمهما[٣] .

وأما حلقات الأدب والأخبار ورواية الحياة العربية فكان العنصر العربى أبرز ما فيها ، ولكن شيوخها كانوا خليطًا من العرب والموالى . فمن العرب كان أبو عمرو بن العلاء وأخوه أبو سفيان بن العلاء ، وهما من خزاعة بن مازن ، والأصمعى والمفضل الضبى . ومن الموالى كان أبو عبيدة تلميذ أبى عمرو وكذلك خلف الأحمر . قال أبو محمد اليزيدى : «كان أبو عبيدة يجلس فى مسجد البصرة إلى سارية وكنت أنا وخلف الأحمر نجلس جميعًا إلى أخرى»[٤] . ومن المعروف أن الموالى من العلماء لم يستطيعوا أن يتحرروا من شعوبيتهم وألفوا الكتب فى مثالب العرب كما فعل أبو عبيدة ، ورأينا بعض الأخباريين منهم يكيدون للأمويين ويدعون فيما يقصون لبنى العباس .

وهكذا نجد المسجد يمثل الحياة العقلية فى العهد الإسلامى تمثيلا صادقًا ، وكان به تتردد أصداء ما يجرى فى البصرة وغيرها . فكانت الأمور فيه شديدة التعقيد شديدة التفاوت ، تجمع بين عناصر عربية تتصل باللغة العربية والأدب ، وعناصر يونانية قوامها الفلسفة والنظر العقلى . وكان امتزاج تلك العناصر يكوّن العقل البصرى ، فجاء فذًّا فى التاريخ الفكرى للمسلمين ، وتمكن من أن يكون مناراً تهتدى به البيئات الإسلامية طيلة الفترة التى تمتعت البصرة فيها بشبابها .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٤٦
(٢) المرجع نفسه ١ : ٣٤٧
(٣) السابق ٢ : ٤٤
(٤) الأغانى ١٨ : ٧٩

أسواقها :

على أن الدور والقصور والمساجد — وهى من أهم معالم المدينة — لم تكن وحدها ذات الأثر فى توجيه الحركة العلمية والأدبية ، وإنما شاركتها فى ذلك الأسواق . وإلا فهل ننكر ما كان لها من فضل على الخليل بن أحمد مثلاً ؟ إن الرواة يذكرون دائماً سوق البزازين بالمربد كما يذكرون سوق الصفارين والقصارين كلما ذكروا عروض الشعر . وكانت سوق الصفارين أشبه بسوق النحاسين بالقاهرة اليوم ، على حين كانت سوق القصارين خاصة بغسل الثياب وصبغها وتنظيفها بمطارق من الجلد استهوت الخليل ضرباتها .

ولكن مهما يكن من أمرها فهى لا تنسينا على الإطلاق مربد البصرة . تلك السوق التى وصل الأمر بها إلى أن تكون عين الدنيا فقد قيل : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة[١] .

والمربد — وهو أهم حى من أحياء البصرة — يقع فى الغرب منها كما قلنا وكان قديماً قدم المدينة نفسها ، بل لقد قيل إن البصرة بنيت فيه[٢] . ولا ندرى ماذا كان يسمى من قبل ، ولكنه فى العربية — على ما يقول الأصمعىّ — كل شىء حُبست فيه الإبل . يقال ربد الإبل يربدها ربداً حبسها ، والربد الطين والرِّباد الطيان[٣] . وكان فيما يروى سوقاً ينزل إليها العرب بأغنامهم وإبلهم قبل الفتح ، ثم دانت لهم عقب بناء البصرة العربية ، ووجدوا فيها متنفساً لمفاخراتهم وتعصبهم ، لا سيما أنهم استمروا يعيشون فى المدينة الجديدة عيشتهم القديمة .

وبعد الفتح بقليل صار المربد محلة عظيمة يسكنها الناس وزحف العمران إليه وأعدت فى جانبه الشرقى مبان دائمة للدباغين ، وفيه شيد قصر « زربى »

---

(١) عيون الأخبار ١ : ٢٢٢

(٢) راجع لسان العرب مادة بصر جزء ٤

(٣) راجع مادة ربد فى اللسان.

وكان منظره الخارجي كالحاً وداخله زهرة . وأقيم في المربد الأعلى إلى الشمال قصر ضمرة بن المهلب ، ثم ما فتئ العمران يتكاثف حتى صار في أوائل الدولة العباسية مكاناً يبنى فيه الكبار قصورهم كما فعل جعفر بن سليمان[١] .

أما طرفه الجنوبي إلى الصحراء فقد أعدّ ليكون مقبرة البصرة الرئيسية وكان يقال له « الجبان » وعلى مقربة منه أنشأ عيسى بن سليمان قصره . وكان الماء يصل إليه محمولاً حتى أنشأ محمد بن سليمان أمير البصرة حوضًا ضخماً تدفقت إليه المياه بوساطة قنوات من رصاص[٢] .

وشهد المربد منذ عرفت البصرة الحياة الجديدة اصطراع القوى وتصادم الأهواء ، وأثر فيه موقف البصرة المناوئ للسلطان ؛ فكان ميداناً للمعارضة ، له من النجاح ما لم يكن يتحقق له لو لم تكن قبائل البصرة نفسها تتعصب ضد الحكومة . وإلى جانب هذا السبب القبلي ثمةَ سببٌ جغرافي ظهر أثره في أيام الأمويين ظهوراً قويا . والواقع أن البصرة منذ قديم تعد الخطَّ الأول لخراسان ، والخراسانيون هم الثائرون أبداً في ظل الخلافة الإسلامية . فضلاً عن أن العمالَ لم يكونوا يحسنون الظن بالأهلين ، واصطنعوا معهم القسوة فلم يزدهم ذلك إلا إصراراً على موقفهم . ولما شغل الأمويون بحروبهم الداخلية وترصَّدَ بعضُهم لبعض ، أصبح المربد منبراً للهجاء ، والعلاقة — بالطبع — قريبةٌ بين الهجاء والمعارضة !

وقد يكون ذلك كله في جانب وتكون الحروب بالسلاح في جانب آخر ، وشهدت ساحات المربد كثيراً من الوقائع ، قال الفرزدق في هجاء جرير :

ألسنا بأصحاب يومِ النَّسار وأصحابِ ألويةِ المِرْبَد[٣]

---

(١) الطبري ١ : ٣١٢٠ (ط . أوربا) .

(٢) فتوح البلدان ص ٣٦٣

(٣) ديوانه ١ : ٢٠٣

وقد نزلت فيه عائشة بعد مقتل عثمان تطالب بالدم المفسوح وتؤلب الناس على ابن عم رسول الله . وفيه اجتمع الخوارج وتناشدوا الشعر وناظروا غيرهم ودبروا بعض حملاتهم ، وفيه دوّت الآفاق بتلك الأحداث التى تُؤرّثها العصبيةُ وتثيرها المنافسةُ ويهيجها الشر. روى أنه بعد مقتل مسعود بن عمرو العتكى وفد على المربد أخوه زياد بن عمرو متحفزاً ثائراً فاجتمعت بكر بن وائل وعبد القيس ، وبلغ ذلك الأحنف بن قيس فندب أصحابه فجاءه حارثة بن بدر الغدانى وقد اجتمعت بنو تميم فلما توافقوا قال : يا معشر الأزد وربيعة ومضر أنتم — والله — أحبُّ إلينا من تميم الكوفة ، وأنتم جيراننا فى الدار ويدُنا على العدو ، وأنتم بدأتمونا بالأمس ووطئتم حريمنا وحرّقتم علينا فدفعنا عن أنفسنا ولاحاجة لنا فى الشرّ ما أصبنا فى الخير مسلكًا ، فتيمموا بنا طريقة قاصدة ! فأرسل إليه زياد ابن عمرو يخيره بين ثلاث ، إما الرحيل عن البصرة وإما دية القتلى وإما النزول على ما يطلب منهم ، فرضى بالدية ودفع إليه إياس بن قتادة الحجاشعىّ رهينة فوافق القوم ، وبذلك افتخر الفرزدق وقال :

ومنّا الذى أعطَى يديه رهينةً لغَارَىْ معدّ يومَ ضَرْب الجَمَاجم
عشيةَ سالَ المِرْبدَان[1] كلاهُما عجاجةَ موت بالسيوف الصوارِم

وتفقد الأحنف تميمًا وكانوا فى البادية هم وحلفاؤهم من الأساورة والزط[2] والسيابجة زهاء سبعين ألفًا فلم يجد عندهم غناء ، فالتمس بغيته عند أحد الشيوخ فأعطاها له ألف بعير دفعها إلى الأزد وحلفائهم ، وهدأ المربد وجنبه الأحنف معركة هائلة[3] .

وحين اشتدت وطأة الحجاج على أهل العراق وجد القوم فى المربد ميدانًا لخُطبهم يؤلبون بها الناس ، كما كان يفعل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث[4]

---

(١) يريد بالمربدان السوق وما يليها مما يجرى مجراها ، والعرب تفعل هذا فى الشيئين إذا جريا مجرى واحداً .

(٢) فى فتوح البلدان للبلاذرى أن سكان البطائح كانوا الزط والزنج ٢٩٢

(٣) راجع الكامل ١ : ٨١ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق ١ : ١٥٩ ، ٢٦٠

وفيه كذلك بدأت حركات الشعوبية فى أناة وحذر . وسمع الناس إلى ابن المقفع وغيره، وهم يفاضلون بين العرب والفرس والروم والهنود[١]. ثم اصطخب الفحول فشهد القرن الأول الهجرى نهضة شعرية قوامها الفخر والهجاء . ومن أجل ذلك عقدت الحلقات . فلجرير واحدة وللفرزدق واحدة ، وكان الراعى يحضر حلقة الفرزدق[٢] ورؤبة يتحلق به الناس وينشدهم شعره ويجتمع إليه فتية تميم ، والعجاج يديم الجلوس فيه . وقد روى أنه خرج ذات يوم فى جبة خز وعمامة حرير حتى وصل إلى المربد فألقى فى الناس قصيدة عرض فيها لربيعة بالهجاء[٣]. واجتمع فيه النابغة الجعدى وأوس وتهاجيا أمام الأخطل والعجاج[٤].

وهكذا كان المربد يعمل عمله فى بناء الحضارة العربية ، ويؤدى دوره فى توجيه الأمزجة وتكوين العقول وتفتيق الأذهان. وقد ظلت له هذه الخطورة فى العصر العباسى ، ولكنه لم يسلم من سنة التطور . فقد هدأت العصبية ومات الفحول واستراح الناس من جدلهم . فأنشأ المربد يصدر كثيراً من القصص والأخبار التى تصور بطولة القدماء فتثير الحماسة فى نفوس الجماهير ، وتؤثر فى الحياة الاجتماعية والأدبية تأثيراً عميقاً. وكان مما يشجع هذه الحركة شعورُ العرب بغبنهم إزاء الفرس الذين تبوأوا الصدارة فلم يجدوا بُدًّا من بعث تراثهم القديم .

وكان الشعراء يقصدون إليه لا ليتهاجوا وإنما ليأخذوا عن بَدْوِه النادرة الشعرية . وجعل العلماء يترددون عليه لا ليحكموا بين الشعراء ، ولكن ليأخذوا اللغةَ عن الوافدين عليه . ويدونوا ما يسمعون ويحفظوا أخبارهم وأقاصيصهم ويتباهوا بما يجرى على ألسنتهم من غريب . وعن الأصمعى أنه قال : «جئت إلى أبى عمرو بن العلاء فقال لى : من أين أقبلت يا أصمعى ؟ فقلت : جئت

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٥٠ (ط . الجمالية سنة ١٩١٣) .

(٢) الأغانى ٧ : ٤٩

(٣) السابق ٩ : ٧٨

(٤) نفسه ٤ : ١٣٢

من المربد ! قال : هات ما معك . فقرأت عليه ما كتبتُ فى ألواحى ، فمَرَّتْ به ستة أحرُف لم يعرفها ، فخرج يعدو ، وقال : شمرت فى الغريب »[١] .

بل لقد وجد الأدباء أن من شروط إجادتهم اتصالهم بعرب المربد . وهذا ياقوت يروى عن الجاحظ أديب العربية الأكبر أنه « أخذ النحو عن الأخفش ، وأخذ الكلام عن النظام ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاهًا بالمربد»[٢] . أما النحويون فأمرهم أوضح من أن تقف عنده ، وفى تراجمهم كثيرون منهم اعتادوا أن يترددوا على المربد يأخذون عن أعرابه ، وأصبح هؤلاء العرب موضع عناية العلماء . وكأن هؤلاء قد استشعروا ذلك فبدءوا يتحولون عن التجارة شيئًا فشيئًا ، أو بدءوا لا يولون تجارتهم القديمة اهتمامهم كله ، وأما اهتمامهم فوجهوه إلى الاتجار بالحياة العربية ورواية أشعار الجاهليين وقص أخبار القبائل وأيامها . وكان إقبال الأعراب على المربد بهذه الصفة من العوامل التى قوّت النزعة العربية فى الدرس ، فاستطاعت أن تقف إزاء ما يرويه الموالى من آثارهم . ولأجل هذا كان سكان البصرة أعرق فى الفصاحة من غيرهم !

وبعد ، فإلام بقى المربد فى العصر العباسى ؟

لسنا نجد نصوصًا صريحة تؤرخ زمن اندثاره ، ولكننا نعلم أنه ظل قَوِىَّ الأثر حتى القرن الثالث . والشىء الذى لا شك فيه أنه كان يتعرض لما تتعرض له البصرة نفسها ، وأنه أصابه ما أصابها من انحلال وفساد فكان يمشى القهقرى ، وقلّت أهميته ، وضعف شأنه ، وضاع فى غمار الأحداث .

بطائحها :

أما آخر خط يمكن أن نضيفه للإطار الذى يحدد طبيعة المصر الذى عاش فيه أدباؤنا البصريون ، فهو البطائح . تلك التى يمكن أن تعتبر حدودها الملتصقة

---

(١) أمالى القالى ٣ : ٢٨٢

(٢) معجم الأدباء ٦ : ٥٦

بالبصرة مع المربد — إذا اصطنعنا تسمية محدثة — ضواحى للبلد ! وكانت هذه البطائح تمد السكان بالقصب والأرز والسمك ، ويحدّد المسعودى مساحتها بخمسة وثلاثين ألف ميل بينما لا تزيد مساحة العراق كله على خمسة وأربعين ألفاً[١] وكان سكانها خليطاً من النبط والزنج والأساورة والزط والسيابجة يعيشون فى فقر شديد ، ومن ثم اندلعت فيهم أخطر ثورة هددت البصرة ، بل قضت عليها إن لم نكن مغالين أو مسرفين .

ولسنا نستطيع أن نحدد بالضبط حدود هذه المنطقة ، وإن كانت تنبطح إلى الشمال فتصل إلى الكوفة وواسط . ولما كانت منطقة مائية فقد توقفت حدودها على تنظيم مشروعات الرى فى السواد. وقد حدث فى نهاية عصر أنوشروان أن تحول دجلة بمجراه إلى الدجيلة عند « الغراف » فجرف كثيراً من السدود ، وأغرق مساحات واسعة من الأرض ابتلعتها البطائح وزادت رقعتها[٢] .

ولم يستقر الأمر فيها استقراراً نسبياً إلا منذ العهد الأموى كما ذكرنا قبل ، وظلت مع ذلك تغير على حدود البصرة من الشمال وتأتى على مزارعها فى منطقة الطفوف . يقول البلاذرى : « وفى أيام الإسلام كانت البثوق تنفجر ويعجز الناس على سد عظمها فتتسع البطيحة وتعرض ، فلما ولى معاوية بن أبى سفيان استخرج عامل خراجه من أرض البطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف[٣] . وهذا يدل على صحة ما قلناه . ولكن الأمر ساء فى عهد الحجاج وأغارت مياه البطيحة على البطيحة « فكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يعلمه أنه قدر لسدها ثلاثة آلاف ألف درهم فاستكثرها الوليد »[٤] .

على أن العمل استمر فيها حتى أخذت تتقلص وتظهر أرض زراعية جديدة

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٤٠ ، ٥٢ (طبعة ليدن سنة ١٨٩٣) وراجع أيضا معجم ما استعجم ١ : ٢٥٩ (طبعة لجنة التأليف سنة ١٩٤٥).

(٢) فتوح البلدان ٢٩٢

(٣) المرجع السابق ٣٠١

(٤) نفسه ٣٠٢

مثل الجبان والخست . وقد أقطع منها سليمان بن عبد الملك الريحية ليزيد بن المهلب . فلما صارت حوزاً قبضها يزيد بن عبد الملك ، حتى جاء هشام منحها ولده إلى أن جاء العباسيون فصادروها .

وما نزعم أن تناقص رقعتها كان دائمًا فى صالح البصرة ، بل كان ذلك يعمل على تناقص المياه الصالحة للشرب فكان البصريون يرفعون شكواهم إلى أولى الأمر ويكثرون فى حفر الترع التى تحمل إليهم الماء العذب .

ولقد لعبت البطائح دوراً كبيراً فى حياة البصرة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، واستطاع الزط — وكانوا بالطفوف يتبعون الكلأ — أن يشدوا من أزر المسلمين حين أعلنوا هم والسيابجة انضمامهم إلى بنى حنظلة ، فى الوقت الذى انضمت فيه الأساورة — سكان السواحل — إلى بنى سعد . ولم يشهد الجميع الجمل أو صفين وتلبثوا هادئين حتى كان ابن الأشعث فمدوا له يد العون ، فلم يجد الحجاج بدًا من ضربهم ، وهدم دورهم وأجلى بعضهم . ولكنه فى الوقت نفسه أتى بغيرهم من السند ومعهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم وأسكنهم البطيحة قرب البصرة فغلبوا عليها وتناسلوا بها[1] ، وانضم إليهم الزنوج وأخذوا يناصبون الدولة العداء .

بل شرعوا يقطعون على الناس الطرق ويبارزون السلطان بالمعصية ويسطون على السفن ، حتى لقد اجترأوا فقطعوا «عن بغداد ما يصل إليها من البصرة من السفن ، فلما استخلف المعتصم حاربهم»[2] .

ولم تذكر الرواية السابقة تلك المشقات الكبار التى عاناها المأمون قبل أن يخيل إليه أنه أخضعهم . ولكن الواقع أن أمرهم أخذ يستفحل بمرور الأيام واستجابت لهم الطبقة الفقيرة فى البصرة نفسها ، فكونوا طبقة ضد الأرستقراطيين الحاكمين وأصحاب الإقطاعات . فلما قام صاحب الزنج بدعوة إلى الإصلاح

---

(١) راجع فتوح البلدان ٣٧٤ ، ٣٧٥

(٢) المرجع السابق ٣٨١ — ٣٨٣

تطورت الأمور بسرعة إلى ثورة عارمة ، وخيل للعمال الذين كانوا يعملون بامتيار الملح وتتبع الكلأ وزراعة أرض السادة أن الفرصة مواتية لعمل كبير ، ولكن لم يلبثوا طويلا حتى انهار أملهم وعادوا إلى ما كانوا فيه من فاقة وبؤس ، ولنا رجعة إلى ذلك فى فصل قادم إن شاء الله .

* * *